محمد دويدار

«كانت نقطة التحول فى حياتى هى اطلاعى على كتابات شبلى شميل. لقد اشتريت الكتابين بجنيهين يمثلان ثروة هائلة لعامل مثلى. وحفظت الكتابين عن ظهر قلب».

محمد دويدار

(فى حواره معى)

ولد فى عام ١٩٠١ لأب عامل فى السكك الحديدية. وفى طفولته عانى مع الأسرة كلها فى معركة إضراب عمال السكك الحديدية ١٩٠٧. الأب مضرب. والمضربون بلا أجر، والبيت بلا خبز. وبعد دراسة قصيرة فى الكتاب وحفظ بعض من القرآن، اضطر أبوه إلى دفعه نحو سوق العمل رغم إلحاح شيخ الكتاب، فالولد ذكى وحافظته قوية. لكن الأب يبحث عن خبز ولا يهتم بمقدرة ابنه على الحفظ. وهكذا عمل محمد دويدار صبياً لأحد الخطاطين حيث أتقن الخط العربى بجميع أنواعه. ثم نجح الأب فى إيجاد عمل له بالسكك الحديدية ليعمل عطشجيا.

وفى حوارى معه قال لى: «كانت نقطة التحول فى حياتى هى اطلاعى على كتابات شبلى شميل، وقد حفظت كثيراً جداً منها عن ظهر قلب». ويمضى دويدار: «كان لى أخ اسمه محمود يعمل فى محل أحذية بالإسكندرية يمتلكه شقيق الشيخ صفوان أبو الفتح، (أحد قادة الحزب الاشتراكى). وكنت بطبيعة عملى فى السكك الحديدية أزور أخى كثيراً وهناك تعرفت إلى الشيخ صفوان الذى ناقشنى عديداً من المرات وشرح لى الأفكار الاشتراكية ونظم لى أفكارى لكنه لم يضمنى للحزب»، وينتظر محمد دويدار حتى عام ١٩٢٧ إذ ينضم إلى إحدى الخلايا السرية للحزب فى طنطا. «ثم رشحنى الحزب للسفر إلى موسكو للدراسة فى "مدرسة كادحى الشرق" فتركت كل شىء وظيفتى وأسرتى وسافرت».

وفى البداية سافر إلى فلسطين، وكان معه عنوان بريدى فأرسل له خطاباً وحضر أحد الرفاق لينقله إلى يافا حيث ركب باخرة سوفيتية بتذكرة سفر إلى إستنبول. وأخفاه قبطان المركب فى مكان سرى.. وأخيراً وصل إلى المدرسة حيث وجد ١٣ مصرياً وآخرين من أحزاب أخرى (مراكش والجزائر وسوريا وفلسطين)، لكنه لاحظ أن أغلبهم من أصول أجنبية غير عربية، وهكذا قام بتجميع المصريين ليرفعوا شعار «أرابيزاتسيا» أى التعريب، لكن بعض مدرسى المدرسة اعتبرهم عنصريين وغير أمميين، ومن ثم هم برجوازيون صغار ويحتاجون إلى تلقينهم أسس الأممية البروليتارية. والغريب أن الأدلة التى سيقت ضده فى هذا الصدد هى أنه يجيد الكتابة العربية الرصينة وأنه حسن الخط (كان خطاطا) ويتحدث عن الداروينية والديالكتيك والصراع الطبقى (ألم يقرأ ويحفظ شبلى شميل؟). وأرسل دويدار ليعمل فى أحد المصانع حتى يصبح العطشجى المتنور بروليتاريا، واستمر هناك ثلاث سنوات ونصف السنة. وخلال هذه الفترة صدر المرسوم الملكى بإسقاط الجنسية المصرية عنه.

وبعد فترة وبإلحاح منه تقرر عودته إلى الوطن. لكن الرحلة كانت درامية. فقد أعطوه بطاقة سفر على سفينة متجهة إلى ميناء «جيليت» فى بلجيكا، على أن يستقبله شخص يسهل له الرحلة إلى باريس وهناك سيرتب له الحزب عودته لمصر. وصل «جيليت» ولم يجد أحداً فى انتظاره.

ها هو فى بلجيكا بلا جواز سفر ولا نقود ولا لغة يتفاهم بها.. مهنة العطشجى أسعفته اختبأ أسفل القطار. وإلى باريس وصل ثم إلى مقر الحزب الشيوعى، وعمل لفترة محرراً فى مجلة يصدرها الحزب باللغة العربية اسمها «الشرق العربى»، لكنه صمم على العودة لمصر. سلموه جواز سفر مزورا ليسافر إلى حيفا. وهناك اكتشفوا أن الجواز مزور وسلموه لضابط مصرى أبلغه أنه فقد جنسيته المصرية. وأعيد إلى السفينة ومنها إلى مرسيليا. حيث تسلم جواز سفر آخر وسافر بالقطار إلى تركيا ثم إلى سوريا وعلى الحدود السورية اشتبهوا فى اسم الصاحب الأصلى للجواز المزور باعتباره تاجر مخدرات. وبرغم أن الأمر مجرد تشابه فى الأسماء فإنه أعيد مرة أخرى إلى تركيا. حيث حكم عليه القاضى بأغرب حكم لإبعاد أجنبى. أن يسدد ثمن بطاقة سفره بالقطار ومعها ثمن تذكرتين ذهاباً وعودة لحارسين يصطحبانه إلى الحدود السورية. وقال للقاضى إنه

مفلس فأمر بترحيله سيراً على الأقدام. ونستمع إليه: «لقد تعذبت فى هذه الرحلة عذابا شديدا وعانيت أهوالا تفوق الوصف. كان الجندى التركى يركب حصانا ويسحبنى مربوطا بحبل ماشيا فوق الثلج. ولما تمزق حذائى كنت أمشى حافياً وقدمى ملفوفتين ببعض القش، وعندما أوشكت على الموت جوعاً بعت البالطو، فالبرد أهون من الجوع»، وأخيراً وصل الحدود السورية وبعد مغامرات شاقة نجح فى الهرب عبر الحدود. كان المتبقى معه من ثمن البالطو أربع ليرات لكن ثمن تذكرة الأتوبيس إلى حلب كان ست ليرات فسار على قدميه ست ساعات أخرى حتى وصل الإسكندرونة ومنها بالأتوبيس إلى حلب وهناك اشتغل عامل بناء حتى دبر بعض المال ليسافر إلى بيروت، وهناك اشتغل شيالاً فى الميناء حتى أمكنه الاتصال بالحزب. وكان من المفترض أن يرتب له الحزب اللبنانى عودته إلى مصر لكنهم طلبوا منه أن يعمل على جهاز الطباعة السرى، وبعد ثلاثة أشهر قبض عليه ومعه المطبعة والمنشورات. وأمام قاض فرنسى قدم دفاعا سياسيا معلنا أنه سحبت منه جنسيته بسبب معتقده السياسى ولا يحمل جواز سفر. وأبدى دهشته من أن القاضى فرنسى الجنسية فى بلد عربى. وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع إعادته إلى سوريا. وأمضى الأشهر الستة لكنه هرب قبل ترحيله إلى سوريا. وهرب إلى فلسطين، وهناك وجد ثورة ١٩٣٦ وهى تتفجر، وعمل مع الثوار وتخصص فى تهريب ونقل السلاح. وكانت خبرة العطشجى سلاحه فى ذلك. إذ يعرف كيف يتعلق بأسفل القطار دون أن يراه أحد.

وأخيراً قبض عليه وتقرر إبعاده لكنه هرب ووصل إلى العريش. الآن هو فى وطنه لكن الأمن يترصده. وعاد العطشجى أسفل ثم فوق سطح القطار حتى وصل إلى القنطرة شرق.

أخيراً عاد.. ولكن هل يتصور أحد أن رحلة عودة هذا المناضل استغرقت خمس سنوات قضى أغلبها فى عذاب لا يوصف؟ وبعدها أسرع إلى الإسكندرية، حيث كان تكليفه الأصلى أن يعود إليها. وبدأ رحلة نضال جديدة وممتدة مع خلايا الحزب هناك.

وبعد..

أرأيتم كيف يكون العشق الذى يفرض على المناضل أن يناضل كى يعود إلى ساحة النضال؟